بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة القيامة مكية

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾.

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي ﷺ: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ. فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب﴾(1) يعني: أنهم كانوا يعدّون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرّقهم عن الحق ولا أقرّهم على الكفر إلا مجيء الرسول ﷺ. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفكٍ مما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى، فيرزقه الله الغنى، فيزداد فسقًا، فيقول واعظه: لم تكن منفكًا عن الفسق حتى توسر، وما غمست راسك في الفسق إلا بعد اليسار، ينكره ما كان يقوله توبيخًا وإلزامًا. وانفكاك الشيء من الشيء أن يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة. و﴿البينة﴾ الحجة الواضحة.

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾.

﴿رسول﴾ بدل من البينة. وفي قراءة عبد الله رسولاً حالاً من البينة. ﴿صحفًا﴾ قراطيس، ﴿مطهرة﴾ من الباطل.

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾.

﴿فيها كتب﴾ مكتوبات ﴿قيمة﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل. والمراد بتفرّقهم تفرّقهم عن الحق وانقشاعهم عنه، أو تفرّقهم فرقًا فمنهم من آمن ومنهم من أنكر. وقال: ليس به ومنهم من عرف وعاند.

فإن قُلْتَ: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أوّلاً؟ ثم أفرد أهل الكتاب في قوله: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾؟ **قُلْتُ**: لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾.

﴿وما أمروا﴾ يعني: في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ولكنهم حرّفوا وبدلوا ﴿وذلك دين القيّمة﴾ أي: دين الملة القيمة. وقرئ: وذلك الدين القيمة على تأويل الدين بالملة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: وما أمروا إلا ليعبدوا الله؟ **قُلْتُ**: معناه. وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾.

وقرأ ابن مسعود: إلا أن يعبدوا. بمعنى بأن يعبدوا. قرأ نافع البريئة بالهمز والقرّاء على التخفيف. والنبيّ والبرية مما استمرّ الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل. وقرئ: خيار البرية جمع خير كجياد وطياب في جمع جيد وطيب. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساءً ومقيلاً»(2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الزلزلة مختلف فيها

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾.

﴿زلزالها﴾ قرئ: بكسر الزاي وفتحها، فالمكسور مصدر، والمفتوح اسم. وليس في الأبنية فعلاً بالفتح إلا في المضاعف.

فإن قُلْتَ: ما معنى زلزالها بالإضافة؟ **قُلْتُ**: معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: أكرم التقى إكرامه، وأهن الفاسق إهانته. تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه.

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾.

الأثقال: جمع ثقل وهو متاع البيت، وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾.

﴿وقال الإنسان ما لها﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع. كما يقولون: من بعثنا من مرقدنا؟ وقيل: هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأمّا المؤمن فيقول: ﴿هذا

(1) سورة البيّنة، الآية: 4.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 4/257.

ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها؟ **قُلْتُ:** هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان حتى ينظر من يقول: ما لها؟ إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات، وأنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه. وقيل: ينطقها الله على الحقيقة وتخبر بما عمل عليها من خير وشر. وروي عن رسول الله ﷺ تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها[1].

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾.

فإن قُلْتَ: إذا ويومئذٍ ناصبهما! **قُلْتُ** يومئذٍ بدل من إذا وناصبهما تحدث، ويجوز أن ينتصب إذا بمضمر ويومئذٍ بتحدّث.

فإن قُلْتَ: أين مفعولا تحدّث؟ **قُلْتُ:** قد حذف أوّلهما، والثاني إخبارها. وأصله: تحدّث الخلق أخبارها، إلا أن المقصود نكر تحديثها الأخبار لا نكر الخلق تعظيمًا لليوم.

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلت الباء في قوله: ﴿بأن ربك﴾؟ **قُلْتُ:** بتحدّث معناه تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها بالتحديث. ويجوز أن يكون المعنى: يومئذٍ تحدث بتحديث أنّ ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها. كما تقول: نصحتني كل نصيحةً بأن نصحتني في الدين. ويجوز أن يكون بأن ربك بدلاً من أخبارها. كأنه قيل: يومئذٍ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها، لأنك تقول: حدثته كذا وحدثته بكذا. و﴿أوحى لها﴾ بمعنى: أوحى إليها، وهو مجاز كقوله: أن نقول له كن فيكون. قال: أوحى لها القرار فاستقرّت. وقرأ ابن مسعود: تنبئ أخبارها. وسعيد بن جبير: تنبئ بالتخفيف. يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾.

﴿أشتاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين أو يصدرون عن الموقف أشتاتًا يتفرّق بهم طريقا الجنة والنار ليروا جزاء أعمالهم. وفي قراءة النبي ﷺ ليروا بالفتح. وقرأ ابن عباس وزيد بن علي يره بالضم.

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾.

ويحكى أن أعرابيًا أخر خيرًا يره. فقيل له: قدّمت وأخرت. فقال:

خذا بطن هرشي أقفاها فإنه كلا جانبي هرشي لهن طريق

والذرّة، النملة الصغيرة، وقيل: الذرّ ما يرى في شعاع الشمس من الهباء.

فإن قُلْتَ: حسنات الكافر محبطة بالكفر[2]، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشر! **قُلْتُ:** المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيرًا من فريق السعداء، ومن يعمل مثقال ذرّة شرًا من فريق الأشقياء. لأنه جاء بعد قوله: يصدر الناس أشتاتًا، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة العاديات مختلف فيها

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾.

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت أنفاسها[4] إذا عدون. وعن ابن عباس أنه حكاه فقال: أح

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ﴿إذا زلزلت الأرض﴾ (الحديث رقم: 3353) وأخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس، (الحديث رقم: 7360) وأخرجه الحاكم في المستدرك 2/532.

(2) قال أحمد: السؤال المبني على قاعدتين إحداهما: أن حسنات الكافر محبطة بالكفر وهذه فيها نظر، فإن حسنات الكافر محبطة، أي: لا يثاب عليها ولا ينعم، وأمّا تخفيف العذاب بسببها فغير منكر، فقد وردت به الأحاديث الصحيحة، وقد ورد أن حاتماً يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، ورد ذلك في حق غيره كأبي طالب أيضاً، فحينئذٍ لحسنات الكافر اثر ما في تخفيف العذاب، فيمكن أن يكون المرئي هو ذلك الأثر، والله أعلم. وأمّا القاعدة الثانية: وهي القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصغائر ويكفرها عن المؤمن، فمردود عند أهل السنة فإنّ الصغائر عندهم حكمها في التكفير= = حكم الكبائر، تكفر بأحد أمرين: إمّا بالتوبة النصوح المقبولة، وإمّا بالمشيئة لا غير ذلك، وإمّا اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب التكفير للصغيرة، فالسؤال المذكور إذاً ساقط عن أهل السنة، ولكن الزمخشري التزم الجواب عنه للزومه على قاعدته الفاسدة، والله الموفق.

(3) أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت، وله شاهد من حديث أنس مرفوعًا، ذكره ابن كثير في تفسيره: 8/480. والخطيب في تاريخه 11/380.

(4) قال أحمد: ولم ينكر حكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم فنقول: إنما عطف أثرن على الاسم الذي هو العاديات وما بعده؛ لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلاً عن اسم فاعل تصوير هذه الأفعال في النفس، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير=